



معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 12/04/2024
تاريخ القبول: 2024/06/30

Printed ISSN: 2352-989X
Online ISSN: 2602-6856

رقم الهاتف: 0659793555

دوافع وأهداف الغزالي في ثورته العقلية على التقليد والتقليدية

*Al-Ghazali's motives and goals in his mental
revolution against imitation and traditionalism*

حملاوي مهتور*

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة، skikda.dz-univ@h.mehtour

الملخص: هدفت هذه الدراسة إلى التعريف بالتقليد والتقليدية، ومحاولة الكشف عن دوافع وأهداف الغزالي في ثورته العقلية على التقليد والتقليدية؛ ذلك أن الثورة لا يمكن أن تخرج منفراغ، ولا تتجه إلى فراغ أيضا فلكل ثائر، ومن دون شك دوافع تحركه، ورهانات، وأهداف، ومكاسب يسعى لتحقيقها من وراء ثورته والمؤكد أن للغزالي دوافعه وأهدافه؛ التي يسعى لتحقيقها من وراء ثورته على التقليد والتقليدية، وهذا ما نسعى لإبرازه برؤية تحليلية تقودنا إلى التأكيد على أن الغزالي؛ قد كان مدفوعا في معاداته للتقليد بدافع الدفاع عن العقل، وتأكيد إنسانية الإنسان، ومحاربة التعصب والجمود الفكري؛ الذي كان سائدا لدى علماء وفقهاء عصره، مستهدفا من وراء ذلك توجيه الأنظار إلى ضرورة الرجوع إلى الأصل والمنبع الداعي لإعمال العقل، والمتمثل في القرآن والسنة، والالتزام بمنهج السلف.

الكلمات المفتاحية: دوافع؛ أهداف؛ ثورة عقلية؛ تقليد؛ تقليدية.

ABSTRACT

This study aimed to introduce imitation and traditionalism, and to try to reveal the motives and goals of Al-Ghazali in his mental revolution against imitation and traditionalism, so that each revolutionary has motives that move him, and gains he seeks to achieve, and Al-Ghazali undoubtedly has his motives and goals, which he seeks to achieve from behind his revolution on tradition, and this is what we seek to highlight with an analytical vision, leading us to confirm that Al-Ghazali has been driven in his hostility to tradition motivated by the defense of reason, and the Affirmation of human humanity and the fight against fanaticism and intellectual rigidity, which was prevalent among scholars and jurists of his time, The aim is to draw attention to the need to refer to the original represented in the Qur'an and Sunnah, and to adhere to the approach of the Salaf.

Keywords: motives; Goals; mental revolution; imitation; traditionalism.

1. مقدمة

يعتبر الغزالي أحد أبرز أعلام الفكر الإسلامي، وهو من الشخصيات القلقة في مجال المعرفة، والسعي إلى الكشف عن الحقيقة؛ فقد عرف بشكه وحيرته، ورفضه للأخذ بالجاهز، والانسياق العفوي، والسطحي، والساذج وراء الشائع والمألوف، والمؤكد أنه قد كان لظروف عصره الفكرية؛ تأثير كبير على مزاجه الفكري الذي جعل منه شخصية متميزة حريصة على الوصول إلى الحق عن طريق البحث بعيدا عن التقليد، وقد عرف الغزالي بثقافته الواسعة وكثرة إنتاجه، حتى أن شيخه أبو المعالي الجويني قد وصفه بالبحر المغدق.

وقد عاش الغزالي في عصر يموج بالفرق، والتيارات، والمذاهب الفكرية، والفلسفية والدينية، والصوفية؛ كما التقت في عصره مختلف الثقافات من فارسية، وهندية، ويونانية، وغيرها، وهي كلها ثقافات تعج بالأفكار العبثية والهدامة؛ التي تشكل خطرا على الدين الإسلامي، والكثير من هذه الأفكار استقرت، وعششت، وأفرحت في العالم الإسلامي؛ لتظهر في صورة عادات اجتماعية تتداولها الأجيال بعفوية وسذاجة، وتقليد أعمى من دون إعمال للعقل فهيمن التقليد والتقليدية على الساحة الفكرية، والثقافية فأصابها الشلل والركود؛ وفقدت حركيتها وحيويتها، وغابت عنها الفاعلية، وسيطر عليها الجمود، وهذا الأخير ليس قدرا محتوما، وإنما هو علة يمكن أن تزول، وهذا ما كان يدركه الغزالي صاحب التكوين العقلي، والرؤية النقدية المتأنية والمتبصرة؛ فأعلن خصومته للتقليد والتقليدية، وثار عليهما وضمن هذا السياق يأتي بحثنا هذا، والذي نسعى من خلاله إلى محاولة الكشف عن دوافع وأهداف الغزالي في ثورته على التقليد والتقليدية، وهذا من خلال إثارتنا لسؤال هام ومحوري، وهو: ماهي دوافع وأهداف الغزالي في ثورته العقلية على التقليد والتقليدية؟

وقد استعنا في محاولة الإجابة عن هذا السؤال بالمنهج التحليلي، وبعرض أوجه المنهج المقارن، وعملنا على وضع خطة تستجيب لمسئلتنا المنهجية؛ الذي يقوم أساسا على التحليل؛ خاصة وأن عنوان بحثنا المركب؛ يتضمن جملة من المصطلحات التي ينبغي العمل على تفكيكها، وضبط مفاهيمها، وبغية تحقيق ذلك قسمنا بحثنا إلى مقدمة، وسبعة عناصر، وخاتمة، وهذا على النحو الآتي:

2- مفهوم الثورة:

تعتبر اللغة سلطة مرجعية تفرض نفسها علينا في أية محاولة للبحث عن المعنى، ولذلك فإنه لا مناص لنا في محاولتنا لضبط مفهوم الثورة؛ إلا أن ندعن لها، وفي اللغة يقال ثار ثورانا وثورا وثورة أي هاج وانتشر، يقال ثار الدخان والغبار وثار الدم بفلان، وثار به الشر والغضب. وثار الماء من بين كذا: نبع بقوة وشدة، وهي بالنسبة للمجتمع تغيير أساسي في الأوضاع السياسية والاجتماعية يقوم به الشعب في دولة ما (مجمع اللغة العربية، 2004، صفحة 102) وهذا يعني أن الثورة توحى بعدم الرضى بالوضع السائد، والرغبة في تغييره، وهي بهذا تتجه نحو المستقبل الذي يحمل الجديد والنافع والمفيد للمجتمع، وتدعو إلى التخلي عن القديم، وعدم التمسك به بحجة أنه الأمثل والأنسب الذي لا يوجد ما هو أحسن منه.

وقد استخدم مصطلح الثورة في التراث العربي الديني والسياسي بمعنى الانقلاب، والثوب، والهاج، والتغيير، كما استخدم للدلالة على ذلك النمط من البحث والتفكير الذي يتسم بالعمق، والغوص وراء المعاني بغية الوصول إلى

الحقائق، والتأثير في المجتمع والعمل على تغييره وتطويره، والسير به من وضع إلى وضع أحسن منه، لكي تتجسد إنسانية الإنسان، وتتحقق سعادته ورفاهيته (حنفي، 1986، صفحة ص 427، 428).

وفي كل عصر، وعبر المسيرة الحضارية للمجتمع الإنساني تظهر ثورات تستهدف التغيير، ومحاربة الفساد في مجالات عديدة، فميادين الثورة واسعة ومتنوعة، ويمكن اعتبار التجديد ثورة على الجمود، والعقلانية ثورة على حرفية النص وظاهريته عند النصوصيين، كما يمكن اعتبار التقدم ثورة على الرجعية والاستبداد، وهكذا يمكننا القول بأن الثورة تتسم بالشمولية بحيث لا يمكن حصرها في مجال بعينه، وكما أن للثورة مؤيدوها ومناصروها؛ فإن لها دائما معارضوها وأعداؤها الذين يسعون لوأدها في مهدها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

وقد استندت التيارات الفكرية الإسلامية المؤيدة لمشروعية الثورة؛ العقلية النظرية أو العملية؛ أو لهما معا إلى ما جاء في القرآن والسنة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران 104)، وقوله صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"، رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن حنبل.

والثورة لا تعرف الرضوخ والاستسلام للركود، والجمود، والسكون، والضعف، وهي إعلان صريح عن عدم الرضى بالوضع السائد، والتمرد عليه والعمل على تغييره، ومن هذا ثورة الاسلام على هيمنة القبيلة في الجاهلية على ذاتية الفرد، وتحريره لهذا الأخير منها بتقريره للمسؤولية الفردية وتأكيد على ضرورة الالتزام الفردي المستقل بالأفعال والتكاليف الدينية؛ لتتلاشى بذلك سلطة القبيلة، وهيمنتها على الفرد شيئا فشيئا (حنفي، 1986، صفحة 438، 448) كما خلّص الإسلام الإنسان العربي من قيد العصبية القبلية، وفتح له فضاء عالميا وكونيا رحبا، وذاك هو فضاء الإسلام الكوني؛ الذي جاء للبشر جميعا مقررًا لاختلافهم، وداعيا لائتلافهم، وعدم المفاضلة بينهم في العرق أو اللون أو الثقافة، واتخاذ التقوى أساسا ومعيارا وحيدا لتفضيل بعضهم على بعض.

والشائع عن الثورة أنها تميل إلى القوة والعنف وتستعجل النتائج، وهذا ما ظهر جليا في الإختلاف الحاصل بين محمد عبده وأستاذه جمال الدين الأفغاني، حيث كان الأول يركز على التربية في عملية الإصلاح أما الثاني فقد كان يدعو إلى العمل المسلح، وحتى صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يدعونه إلى الثورة ومحاربة المشركين الذين تفننوا في إلحاق الأذى بالمسلمين، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحارب المشركين إلا بعد أن جاءه الأمر من ربه، وقد كان إيمان الصحابة رضوان الله عليهم بان ما يؤخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، فالحديد بالحديد يفلح ويشق كما يقال.

وإذا كانت الثورة توحى بوجود الظلم من طرف معين؛ فإنها توحى أيضا بظلم الإنسان لنفسه؛ إن هو لم يواجه هذا الظلم، فقد شرع الله عز وجل لعباده الحق في الدفاع عن أنفسهم، وممتلكاتهم، وأعراضهم، ومواجهة الظلم، ولأن الظلم ظلمات يوم القيامة، فقد حرم الله عز وجل الظلم على عباده، بل وحرمه على نفسه، يقول تعالى: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلِّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (سورة ق، الآية 29)، ويقول أيضا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلِّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (سورة فصلت، الآية 46)، وقد نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الظلم بقوله: "اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (صحيح مسلم، رقم الحديث 2578).

3- مفهوم التقليد

يشير التقليد في اللغة إلى التعليق؛ كتعليق شيء ما في عنق البدنة حتى يعلم الناس أنها هدي، كما يشير إلى الملازمة، وعدم المفارقة مثلما يلزم الحمامة طوقها (ابن فارس، د.ت، صفحة 19)، ويقال تقلد فلان كذا، إذا تلبس به، ويستعمل التقليد في الأعيان (كاللباس) والمعاني (كالآراء والأعمال). وقلدت فلان أمري، أي أعطيته قلد أمري وألقيت له مقاليد أمري وعلى ذلك فإن قول الفقهاء: فلان يقلد أبا حنيفة، معناه: يقلده أمره أبا حنيفة، أي أنه قد تقلد مذهب أبي حنيفة، أو ألقى مقاليد أمره لمذهب أبي حنيفة رحمه الله (العمري، 1999، صفحة 221، 222). وعلى ضوء هذا يمكننا القول أن التقليد لا يخرج في معناه اللغوي عن الملازمة، وعدم المخالفة، وعدم المفارقة مثلما لا تفارق القلادة عنق صاحبها، وعندما يقلد الإنسان غيره فإنه بذلك يتنكر لعقله، ويرفض التفكير والبحث والنظر، والتحري ويعترف بالعجز، وكأنه بذلك يقول للذي يقلده فكر لي، فهو يصير على ملازمة رأيه، وعدم مخالفة ما يقول، وفي هذا اعتراف للغير بالأفضلية والأولوية، واتخاذ كمرجعية فكرية أو دينية، وقد يتعدى الأمر عند بعض المقلدين لغيرهم أن يحيطوهم بهالة من قداسة، وهنا تكمن خطورة التقليد.

ويعتقد الإنسان المقلد أن من يتبعه في قوله أو فعله يمتلك الحقيقة، وينبغي الأخذ برأيه، وهو لا يحتاج في ذلك إلى دليل أو حجة مقنعة، فيصبح قول الغير بالنسبة للمقلد ملازما له تما ما كما تلازم القلادة عنق صاحبها (صليبا، 1982، صفحة 327)، وهذا هو المعنى الذي يتفق حوله الفقهاء، فالتقليد في عرفهم هو قبول قول الغير من غير حجة؛ ولا يسمى الأخذ بقول النبي صلى الله عليه وسلم عندهم تقليدا؛ لأن ذلك هو الحجة في نفسه (بن قدامة، 1998، صفحة 381)، ومن هنا كان لابد من التمييز بين تقليد الرسول صلى الله عليه وسلم وتقليد غيره. ويمكن الحديث عن نوعين من التقليد، تقليد واجب محمود، وتقليد مذموم مرفوض، أما الأول فهو ذاك الذي يلجأ فيه المجتهد في اتباع ما أنزل الله إلى تقليد من يفوقه في العلم والأخذ برأيه، والدليل على صحة مثل هذا التقليد أن الصحابة- رضوان الله عليهم- كانوا يفتنون ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، وهذا تقليد منهم قطعاً؛ إذ إن قولهم لا يكون حجة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما الثاني فهو أن يكون هناك إعراض عما أنزل الله والاكتفاء بتقليد الآباء والأجداد، أو يكون في صورة تقليد من يجهل المقلد أنه أهل لأن يأخذ بقوله؛ أو أن يكون تقليده بعد قيام الحجة، ووضوح الدليل على خطأ الذي يقلد (زقزوق، 2003، صفحة 410، 411).

4- مفهوم التقليدية

تعرف التقليدية على أنها نزعة ترمي إلى التمسك بالماضي، و تعارض التجديد، فهي تعبر عن حب التقاليد والتعلق بها، أو هي القول بوجود محافظتنا على الأوضاع السياسية والاجتماعية القديمة، لا لإقامتنا الدليل العقلي على ضرورتها، بل لاعتقادنا أنها تعبير طبيعي عن حاجات المجتمع الحقيقية، ولعلمنا أن إصرار العقل على نقدها لا ينتج إلا الشر والفساد ويسمى أصحاب هذا الرأي بالتقليديين، خلافا للعقليين الذين انحلت عنهم رابطة التقليد، وأوجبوا النظر في المقبولات والمشهورات والتقليديات لمعرفة ما يلزم منها وما لا يلزم.

والتقاليد هي ما وصل إلينا من العادات والعقائد وأمور العبادات خلفا عن سلف، ومنها التقاليد الدينية والتقاليد الاجتماعية، والتقاليد السياسية، وغيرها، وهذه التقاليد إما أن تكون مكتوبة وإما أن تكون غير مكتوبة، وهي إذ توحد الأفراد تنتقل من جيل إلى جيل وتعمل على اتصال الحضارة (صليبا، 1982، صفحة 328)، و يهنا هنا أن

نشير إلى أن التقليدية في الدين تعني قبول رأي الغير في مسأله بلا حجة أو دليل يثبت صحتها، وهذا يعني إهمال دور العقل كأداة للنظر وتحري الصواب من الخطأ (الحفني، 2000، صفحة 214)، وفي التاريخ البشري صور لا تعد ولا تحصى لعادات أثبتت حضورها، وقدرتها على الاستمرار والصمود في وجه الزمن، ذلك أن الزمن لا يمضي على شيء إلا ويغيره، والتغيير قد يكون نحو الأحسن؛ كما أنه قد يكون نحو الأسوأ، وفي حياة المجتمع العربي الإسلامي نماذج لعادات حسنة وأخرى سيئة، ومن العادات الحسنة إكرام الضيف، ونصرة المظلوم، ومن العادات السيئة وأد الأنثى في الجاهلية وحرمانها من الميراث ظلما بعدما بين الإسلام حقوقها.

إن التقاليد في أصلها هي عادات أثبتت حضورها باستمرار في حياة المجتمع الإنساني، لأن هذا الأخير حافظ عليها، ورفض التخلي عنها، وحارب منتقديها، والرافضين لها فنداولتها الأجيال جيلا بعد جيل، لتصبح تقاليدا، أما تلك العادات التي زالت وتلاشت فليست تقاليد لأنها لم تتمكن من الصمود والاستمرار، فعادة وأد الأنثى التي سادت في الجاهلية لم تستمر لأن الإسلام قضى عليها، فلم تتمكن بذلك من الاستمرار ولم تستطع تجاوز الإطار الزماني والمكاني الذي ظهرت فيه.

والمأمل في حياة الإنسان يدرك بأنه يكاد يكون مجموع عادات تمشي على الأرض، وهو بفضل هذه العادات يستطيع التكيف مع ظروف الحياة ومستجداتها، فعن طريق العادات الفكرية والسلوكية؛ يستطيع الإنسان أن يوفر الجهد والوقت، والمؤكد أن العادات ليست إيجابية كلها؛ فمنها السلبية أيضا، وهنا تكمن خطورة الانسياق وراء العادات من دون فحص وتمحيص ونقد، حتى أن أحد أبرز فلاسفة العصر الحديث، وهو الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو قد دعا الإنسان إلى عدم التعود على أية عادة؛ خشية أن يعيش عبدا لعاداته فيغيب عنه التفكير وحسن التدبير.

5- ظروف وملايسات خصومة الغزالي "450-505هـ" للتقليد

عاش الغزالي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، وقد كان هذا العصر أشبه بمحيط يموج بشقى تيارات الأفكار والعلوم والمعارف، والفلسفات والعقائد والمذاهب والنحل وتندفع إلى خضمه من جميع جوانبه روافد من التراث الفكري؛ لتصب فيه عصارة الفكر الإنساني في مدى قرون من الماضي السحيق؛ منذ كان للعقل البشري سلطان النظر في الكون والبحث في أسرار الوجود. ففي عصر الغزالي التقى الزهد بالتصوف، ونزعات الإلحاد في فلتات الزندقة، وهدى الإيمان ونسك التعبد، وحيرة الشك وسفسطة المنطق، ومنطق الفلسفة في الجدل حول أصول الدين، وتفلسف العقيدة في عبارات المتكلمين، إلى جوانب أخرى زخرت بها الحياة الاجتماعية في محافل الخلافة والملك وأندية المترفين (عرجون، د.ت، الصفحات 4-5).

وعندما شاهد الغزالي صاحب العقل اليقظ حالة الفوضى الفكرية متجسدة في اضطراب الفرق واختلاف المذاهب، وتباين الملل والنحل وتعدد الأديان وتنوعها، وتعدد الآراء وتضاربها وسلطان التقليد في اعتناق هذا المذهب أوذاك داخله الشك في أمر ما رآه، وقد شبه ذلك ببحر غرق فيه الكثير، ومع ذلك فقد كشف عن رغبته في اقتحام هذا البحر، وكان ذلك بدافع طبيعي في نفسه، حيث كان يتوق منذ ريعان شبابه إلى معرفة الحقائق، وكان هذا بالنسبة إليه أمرا طبيعيا، فهو جزء من تكوينه الفكري ولا حيلة له في أن يكون عكس ذلك (الغزالي، 1967، صفحة 63).

فلم يكن الغزالي من أولئك الذين يقبلون الآراء بعفوية، وتلقائية، و سطحية، وسذاجة، بل كان صاحب نزعة شكية متأنية، ولم يكن يشك لأجل الشك كما يفعل أصحاب الشك المذهبي؛ أو الشك المغلق الذي لا يشك

أصحابه إلا من أجل الشك، فهم وثوقيون منغلزون على أفكارهم، ويفضون التخلي عنها، والأخذ بغيرها على الرغم من وضوح الأدلة على خطئها، وإنما كان الغزالي يسعى إلى بلوغ اليقين الذي يقوده إليه الشك المنهجي المفتوح. وقد أحس الغزالي بديب هذا الشك في وقت مبكر جدا من حياته فأمن به، واعتنقه منهجا وطريقا إلى الحقفد أصبح الشك عنده ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها لمن يريد أن يعرف تماما كضرورة العين للإبصار، فالمقبل على المعرفة من دون شك سيبقى تائها في الضلال؛ كما أن الذي يفقد حاسة البصر سيبقى في عماه ولا يمكنه أن يبصر. وقد غمرت موجة الشك الغزالي، وبلغت شكوكه درجة جعلته يعتزل التدريس، ويترك الأهل، والولد والمال ويخرج من بغداد في سنة (1095) بعد إتمام كتاب تهافت الفلاسفة، أو بعد ذلك بقليل، ولم يستقر رأيه على رفض ما ناله من جاه، وتقدم، وشهرة، إلا بعد تردد طويل ومجاهدات نفسية عنيفة (الغزالي، 1967، صفحة 9). فقد كان الغزالي يطلب المعرفة ويلتمسها في جميع أوجهها، ويجد في طلب اليقين ويتشكك في كل ما يعرض له، فلا يتساهل في أمر، ولا يستقيم له رأي إلا بعد طول فكر، وتدبر وأناة (مرحبا، 1983، صفحة 621).

فعندما نظر الغزالي فيما حوله، وتقرر لديه أن الإنسان يتلقى العقائد عن طريق التقليد، حيث يتساوى في ذلك صبيان اليهود وصبيان النصارى وصبيان المسلمين، وأن يأخذ العقيدة من الوسط الذي ينشأ فيه، ويقوم بتقليد من هم حوله من دون حجة أو دليل (الغزالي، 1967، صفحة 63)، وقف من كل هذا وقفة التأمل والمحقق؛ لينتهي به الأمر إلى الشك، وكان أول الشك عنده انحلال رابطة التقليد، لأنه لم يجد فيها علما يقينا، ولا وسيلة لتمييز الحق من الباطل، فزادت رغبته في معرفة حقيقة العلم، وقد اهتدى الغزالي إلى الكشف عن حقيق هذا الأخير، وأدرك بأن العلم اليقيني لا يخالطه الخطأ والوهم، ولا تنطلي عليه الألاعيب والأباطيل؛ فإذا علمنا مثلا أن العشرة أكبر من الثلاثة وأراد شخص ما أن يثبت لنا عكس ذلك؛ مستدلا على صحة رأيه بقدرته على تحويل العصا إلى ثعبان، وتمكن من ذلك فعلا، فإن هذا لا يؤثر على معرفتنا، ولا على اليقين الذي حصل لدينا بأن العشرة أكبر من الثلاثة (الغزالي، 1967، صفحة 64). ذلك هو العلم اليقيني كما عرفه الغزالي وأراد، فراح ينشده. إنه ذلك العلم الذي لم يأخذه وراثة عن والدين أو تقليدا عن أحد، والذي تبلغ درجة اليقين فيه ما أشار إليه المثل الذي ضربه، فلا أحد يقدر على تشكيكه فيه ولو قلب أمامه العصا ثعبانا، وكل ما يستطيع أن يتركه فيه من أثر إنما هو التعجب من تلك القدرة، لا الشك فيما علم. إنه يريد أن يعرف العلم اليقيني فيعرف أهله، لا أن يعرفه من أحد مهما بلغت حجته. فالغزالي هنا يريد للمعرفة أن تكون في يقينية الأوليات الرياضية التي لا يخالطها شك أو شبهة (مرحبا، 1983، صفحة 623).

وبعدما أدرك الغزالي حقيقة العلم أراد التحقق من مدى يقينية العلوم والمعارف التي يمتلكها، فوجد بأنه يأخذ علومه ومعارفه من الحسيات أو من المعقولات، وأدرك بأنه لا مناص له من تحري صحة ما يأتيه عن طريقهما، والنظر في إمكانية إخضاعهما للشك، وقد انتهى الأمر بالغزالي إلى عدم الثقة بالمحسوسات لأن العقل يكذبها، ثم اهتدى إلى عدم الثقة في العقليات بالاستناد على ما يحدث له في منامه، حيث وجد بأنه يرى في منامه أشياء يعتقد صحتها ليذكر بعد ذلك أنها محض أوهام وخيالات، وبلاستناد أيضا إلى ما يحدث لدى بعض المتصوفة؛ الذين يزعمون بأنهم يرون أحوالا لا تتفق مع العقل (الغزالي، 1967، صفحة 66، 67)، وهذه الأحوال تنزل من لدن الله عز وجل على قلب المتصوف فلا يستطيع دفعها والتخلص منها، وهذه الأحوال هي: حال مراقبة النفس ومحاسبتها - القرب - المحبة -

الخوف والرجاء- الشوق- الأنس- الاطمئنان- المشاهدة- اليقين، وهذه الاحوال في حقيقتها هي "جو نفسياني" يحيط بالمتصوف في رحلة تدرجه في المقامات(فروخ، 1972، صفحة 479).

ونتيجة لذلك دخل الغزالي في دوامة من الشك والمرض والوسواس لمدة تقارب الشهرين؛ لتعود نفسه إلى حال الصحة والاعتدال، حيث أصبح يثق في العقل، ولم يكن ذلك بمجهود أو نشاط عقلي منه، فلم يكن ذلك بدليل هداية إليه عقله، وإنما كان ذلك بنور القاه الله في صدره، وهو النور الذي اعتبره الغزالي مفتاحا لأكثر المعارف (الغزالي، 1967، صفحة 67، 68)، وقد اعتبر الغزالي هذا النور نعمة أنعم الله بها عليه، ورحمة غمره وشمله بها، ومن انكر هذا النور في رأي الغزالي يكون قد ضيق رحمة الله الواسعة.

وهكذا نجد بأن الغزالي لا يريد لعلمه أن يكون قائما على التقليد، وتجدر الإشارة هنا إلى أن التقليد الذي يقصده الغزالي ليس التقليد بمعناه العام، أي التقليد في كافة العلوم والمعارف والفنون التي شهدتها وعرفها عصره، وإنما هو التقليد المرتبط بأصول الدين وعقائده، حيث نجده يلح على عدم اتباع مذهب من المذاهب، وتحري الحق عن طريق الفحص والنظر، وهذه دعوة صريحة من الغزالي للاجتهاد والابتعاد عن التقليد.

ولا يدخل التقليد في فروع الفقه في دائرة التقليد الذي يعنيه الغزالي، وإلا تكون قد انحلت عنه رابطة التقليد فيها، فهو في مؤلفاته الفقهية؛ كاليسيط والوسيط والوجيز يقرر مذهب الشافعي، وإن كانت له اجتهادات في بعض فروع الفقه والمسائل العارضة؛ فهي لا تخرجه عن التقليد في دائرة أصول إمامه الشافعي فهو بحسب اصطلاح الفقهاء مجتهد مذهب بلغ درجة الترجيح بين أقوال شيوخ المذهب، وقد يجري الغزالي على سجيته في التحرر الفكري فيرجح مذهب غير الشافعي عليه؛ كما صنع في مسائل المياهوإزالة النجاسة؛ حيث رجح مذهب مالك فيهاوارتضاه (عرجون، د.ت، صفحة 45).

وهكذا نجد بأن الغزالي قد نصّب التقليد خصما لذودا له، واشتراط في سبيل الوصول إلى الحقائق أن يكون الباحث حرّ العقل مستقل التفكير، ونَدّد بكل فكر موسوم بالتبعية والمحاكاة، وبلغ من حرصه على هذا المبدأ أنه ختم كتابه في المنطق "معيار العلم" بدعوة للقارئ إلى أن يدرسه بروح الفهم لا بروح التقليد (زقزوق، 2003، صفحة 411)، فالغزالي لا يشتغل بالتقليد، ولا يريد لغيره أن يحتكم إليه، لأن في التقليد انتقاصا من العقل

6- دوافع الغزالي في خصومته للتقليد

إن خصومة الغزالي للتقليد لا تخرج من فراغ ومن دون شك، وإنما هي خصومة لها دوافعها ومبرراتها؛ فقد خاصم الغزالي التقليد بدافع الدفاع عن العقل وتأكيد إنسانية الإنسان فالإنسان المقلد الذي يرضى بالتبعية والخضوع والتسليم بدون رأي ولا تفكير؛ هو في نظر الغزالي إنسان يتنازل عن إنسانيته، وهو إنسان أعمى، لا فائدة ترجى منه ومحاولة إصلاحه إضاعة للوقت (الغزالي، 1993، صفحة 19، 20).

وتحقيقا لإنسانية الإنسان يدعو الغزالي إلى تحرير العقل من قيود التقليد؛ بشجاعة أدبية ناذرة غير مكترث بمخالفة المؤلف والشائع من الآراء في عصر تميّز بالتقليد للمذاهب والأقوال الموروثة، وكان يصدر في هذا كله عن إيمانه بذاته وثقته بقدرته على البحث والاستقصاء، وازدراؤه للتقليد والمقلدين، ولو كانوا على حق. فهو مؤمن بالاجتهاد وإعمال العقل منكر للتقليد، خصم عنيف للتبعية (مرحبا، 1983، صفحة 619)، فالغزالي وبحكم تكوينه العقلي

يشيد بالعقل ويدعو إلى إعمال النظر، ويؤيد حرية الرأي، ويرفض أن يكون الرجال معيارا لمعرفة الحق، لأن معرفة الحق كفيلا بمعرفة أصحابه.

لقد كان الغزالي ينشد الحق أينما وجده، فيأخذ من آراء المتكلمين ما يؤمن به، ومن آراء الفقهاء ما يعتقد به ومن أقوال الفلاسفة ما يثبت له، بلا عصبية ولا جمود. فهو يبيح لنفسه الاجتهاد في الرأي، ويطلب من كل من يأنس في نفسه القدرة عليه أن يجتهد رأيه ليكون صاحب مذهب وعقيدة، لا عبدا من عبيد التقليد، وإذن فينبغي للعالم أن يعرف الحق، وبه يعرف الرجال (الغزالي، 2011، صفحة 87).

وهكذا نجد الغزالي يدعو إلى التحرر من سجن التقليد، ويرفض الجمود على آراء البشر لأنهم ليسوا معصومين ويحذر من الانبهار بأسماء الكبار مهما كانت منزلتهم في العلم، وشهرتهم في الدين، وكان دائم الدعوة للنظر إلى القول لا إلى قائله. والاعتداد بدليل الرأي لا بشهرة صاحبه، كما كان دائم الدعوة إلى التشكيك في الأقوال الموروثة والمذاهب المتبعة ليزيل عنها ما أحيطت به مما يشبه القداسة أو العصمة، ويضعها تحت محك الامتحان (القرضاوي، 1994، صفحة 63، 64).

وقد كانت للغزالي أفكاره الخاصة، ومواقفه المستقلة، التي خالف فيها من قبله؛ فقد خالف الأشعري في بعض مسائل الكلام، وخالف إمامه الشافعي في بعض مسائل الفقه، وخالف المتصوفة في شطحاتهم وتوهماتهم غير المنضبطة بالشرع والعقل، وكانت مخالفته للأشعري مما أثار حوله غبارا كثيفا حتى اتهم بالكفر (القرضاوي، 1994، صفحة 67، 68).

أما الدافع الثاني الذي نحسبه قد كان سببا لثورة الغزالي على التقليد وخصومته له؛ فهو رغبته في محاربة الجمود الذي خيم على علماء عصره، حيث أصبحوا مقلدين لمذاهب أئمتهم في الفقه أو الاعتقاد فتعطلت عقولهم وأصبحوا لا يخالفونهم؛ حتى ولو كان الدليل مؤيدا لغير ما ذهبوا إليه. والغزالي يرفض هذا التقليد، ويلج على ضرورة اعتماد العالم على قوة بصيرته وصفاء قلبه لا على ما يقرأه في الكتب أو على ما يسمعه من الآخرين.

لقد انشغل الغزالي بعلماء عصره ليكشف عن مكانة العلماء في الإسلام، وليبين مهامهم، وقد أشار الإسلام إلى مكانة العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر الآية 28)، وقوله عز وجل أيضا: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة الآية 11). وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران، الآية 18). وعنه صلى الله عليه وسلم: "العلماء ورثة الأنبياء" (أخرجه أبو داود 3641، والترمذي 2682، وابن

ماجة 223)، وعنه صلى الله عليه وسلم لما ذكر عنده رجلان أحدهما عابد والآخر عالم فقال: "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم" (أخرجه الترمذي 2685)، وقال أبو مسلم الخولاني: "العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء، إذا بدت للناس اهتمدوا بها، وإذا خفيت عليهم تحيروا" (الشافعي، 2016، صفحة 42).

والعلماء في نظر الغزالي هم القلب النابض للأمة، وهم الأطباء الذي يعالجون مرضى الجهل والغفلة فيها، وهم الأطباء الذين يعالجون مرضى القلوب، فلا حياة للقلب في نظر الغزالي إلا بالعلم والحكمة، وهما الغذاء الذي يستمد منه طاقته، تماما مثلما يستمد الجسم حياته وطاقته من الطعام (الغزالي، 2011، صفحة 30).

وقد أبدى الغزالي اهتمامه بالعلماء، وبيّن مكانتهم في الإسلام ، وأشاد بدورهم الريادي والتنويري في المجتمع وأكد على أن صلاح المجتمع لا يكون إلا بصلاح العلماء، وعندما لاحظ فساد أخلاق علماء وفقهاء عصره أولئك الذين يتصدرون القيادة والنصح والتوجيه، قام بثورته العقلية والأخلاقية كاشفا عن نزعتة التجديدية مستهدفا تقديم الصورة اللائقة والمشرقة عن الإسلام، تلك الصورة التي شوهد بها فقهاء عصره ممن مرضت قلوبهم وماتت ضمائرهم فأصبحوا يلهثون وراء حطام الدنيا، متخذين من العلم وسيلة لبلوغ أغراضهم الدنيوية (الغزالي، 2011، صفحة 217).

والذي يسعى وراء بريق الدنيا وحطامها؛ يكون بذلك قد اتصف بصفات علماء الدنيا، وابتعد عن صفات علماء الآخرة، فالعالم ينبغي أن يتخلق بالزهد في الدنيا والتقليل منها بقدر الإمكان الذي لا يضر بنفسه أو بعياله، فإن ما يُحتاج إليه لذلك على الوجه المعتدل من القناعة ليس يعد من الدنيا ، وأقل درجات العالم أن يستقذر التعلق بالدنيا لأنه أعلم الناس بخستها وفنتها ، وسرعة زوالها ، وكثرة تعبها، فهو أحق بعدم الالتفات إليها والاشتغال بمومها (الشافعي، 2016، صفحة 50).

وبذلك يؤكد الغزالي بأنه لا سبيل إلى صلاح المجتمع إلا بصلاح العلماء والفقهاء، لأن الفقيه ينظر في الدنيوي والدنيا هي الطريق إلى الآخرة، ولا يكون حديث الفقيه في صفات القلوب والخطايا والآثام وكل ما يتعلق بالآخرة من أحكام فإن ذلك يعتبر تطفلا منه، لأن هذه الأمور تعتبر بالنسبة له أمرا ثانويا، تماما كمثل القضايا المتعلقة بالطب والحساب وعلم الكلام (الغزالي، 2011، صفحة 73)، وهكذا نجد بأن الغزالي يؤكد على ضرورة التمييز بين ما هو محوري ومركزي بالنسبة للفقيه، وبين ما هو ثانوي عنده.

وإذا كان الغزالي قد شبّه الفقه بالطب؛ فإنه يفرق بينهما من حيث الدرجة، فالفقه في نظره أعلى مرتبة من الطب فهو أشرف وأنبّل منه، لأنه علم شرعي مستوحى من النبوة أما الطب فليس كذلك، فهو علم دنيوي وليس علما من علوم الشرع، كما يفرق الغزالي بين الفقه والطب من حيث أهميتهما ووجه الحاجة إليهما، حيث يؤكد استحالة الاستغناء عن الفقه بالنسبة لطالبي الدنيا وطالبي الآخرة الأصحاء والمرضى منهم، بينما لا يحتاج إلى الطب سوى المرضى، وهم الأقلية، فالفقه محطة لا بد منها لسالك طريق الآخرة لأنه يهتم بالنظر في صفاء القلوب، لأنها مصدر أعمال الجوارح (الغزالي، 2011، الصفحات 74-75).

وقد كان الغزالي يركز على صفاء القلوب ونقاؤها، ولم يكن يكتب من أجل الشهرة والافتخار والتباهي، وإنما كان يستهدف من وراء كتاباته هداية الحيارى والتائهين، ورد المنحرفين عن جادة الصواب إلى الطريق المستقيم، وقد كان الغزالي يرى بأنهم مسؤول أمام الله عز وجل عن الأمر بالمعروف، والدفاع عن الدين، والوقوف في وجه التيارات العبثية التي كان عصره يعج بها.

7- التقليد والإتباع وضرورة العودة إلى الأصل

إذا كان الغزالي قد دعا إلى نبذ التقليد، فإنه لا يتردد في تقديم البديل، ويدعو إلى العودة إلى المصدر والمنبع الصافي الذي يتمثل في الكتاب والسنة، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد فرض على عباده طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (سورة آل عمران، الآية 32)، والرسول صلى الله عليه وسلم هو الشخص الوحيد الذي أوجب الله عز وجل طاعته، وقد أجمع العلماء على أنه صلى الله عليه

وسلم هو وحده الشخص المعصوم الذي ينبغي تقليده، ولذلك نجد بأن الأئمة الأربعة قد رفضوا تقليدهم في كل ما يقولون ونهوا الناس عن ذلك (الحنبلي، 2018، صفحة 28).

وينبغي التأكيد على أن التقليد لا يكون للحق فقط وإنما هو يكون أيضا للباطل، وهذا ما ينطبق على الإتياع أيضا، حيث يشير هذا الأخير في اللغة العربية إلى الموافقة والمحاكاة والقفو، والإتياع من تبع الشيء تبوعا بمعنى طلبه وسار في أثره (ابن منظور، 1999، صفحة 13)، والتابع لغيره إما أن يتحرى الأمر ويتفحصه؛ فلا يتبع إلا عن نظر واستدلال وإما أن يسلم ويعتقد بصحة الرأي، وقد يكون هذا التسليم انقيادا لأهواء النفس وشهواتها، وقد استعمل الإتياع في إتياع الحق، وإتياع الباطل بصرف النظر عن المسالك المؤدية إليهما. والإتياع والتقليد يقع كل منهما على ما هو مشروع وما ليس بمشروع. ولذلك نجد في كلام كثير من العلماء المطابقة في الاصطلاح بين لفظي الإتياع والتقليد (العمري، 1999، صفحة 221، 222).

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى التفريق بين الإتياع والتقليد بحجة أن التقليد يلتزم المكلف فيه بملازمة مذهب غيره لا على أساس الحجة، بل استجابة لاندفاع النفس وهواها، أما الإتياع فلا يكون من صاحبه إلا عن بينة وحجة واضحة، ولذلك فقد استساغ الفقهاء والمفسرون أمثال ابن خويز منداد المالكي، وابن عبد البر المحدث والفقهاء المالكي وابن القيم، والشاطبي وغيرهم، ممن رأوا أن المقلد يشبه الأعمى؛ الذي يوافق دون أن يرى أما المتبع فهو إما أن يوافق مغمضا عينيه؛ دون أن يتحرى ويتحقق من صحة الأمر، وإما أن يوافق وهو يرى ويصبر ويستطيع التمييز بين الخطأ والصواب (الششري، 1416هـ، صفحة 31، 32) لذا مدح الله عز وجل أهل هذه المرتبة، فقال جلّ وعلا: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (سورة الزمر، الآية 18).

وهنا نجد الغزالي يميز بين التقليد والإتياع، والمقصود بهذا الأخير عنده هو إتياع الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا ما يبدو واضحا وجليا في رسالته "أيها الولد" التي يؤكد فيها أن الطاعة والعبادة تعني الإذعان لأوامر الشارع في أوامره ونواهيه، قولاً وفعلًا، وأن يكون الشرع هو القدوة في الأقوال والأفعال، وكل إعراض عن الشرع يعتبر ضلالة (الغزالي، 2014، صفحة 50، 51)، ولهذا كان ينبغي الحرص في نظر الغزالي على أن تكون كل الأقوال والأفعال الموافقة للشرع ومنسجمة معه.

ومن هنا؛ فإن الغزالي يدعو إلى تقليد الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما أمر به، وعدم الانسياق وراء العقل وحده؛ لأن العقل يحتاج إلى دعم وسند من الشرع، وهذا المستند، هو "صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه" والذي يمكن للعقل معرفة صدق ما أمر به، ولا يمكن للعقل الذي يعتريه الضعف والقصور والحصار أن يحيط بكل شيء علما، ومن اعتقد بقدرة العقل المطلقة على إدراك الحقائق فقد انحرف عن جادة الصواب، وتبع طريق الضلالات (الغزالي، د.ت، صفحة 2).

وهكذا يؤكد الغزالي على محدودية العقل، وعدم قدرته على الإحاطة بكل شيء وهنا يكمن الفارق بين النزعة العقلية التي نجدها عند الغزالي، وتلك التي نجدها عند الفلاسفة العقليين الذين انساقوا وراء الأفكار الفلسفية اليونانية، إلى درجة أن البعض منهم قد ذهب إلى القول بأن مرتبة الفيلسوف أعلى من مرتبة النبي، لأن هذا الأخير يستقبل الوحي الجاهز من دون بحث أو نظر أو نشاط عقلي، أما الفيلسوف فهو يفكر وينظر ويجتهد في البحث، وهذا كلام خطير ما كان للغزالي أن يقبله، ولذلك نجد أنه يرد على الفلاسفة المشائين، وهم اتباع أرسطو مؤكدا على ضرورة عدم

الانسياق الساذج وراء الأفكار الفلسفية اليونانية، فالمعروف عن الفلاسفة اليونانية والحضارة اليونانية أنها وثنية تؤمن بتعدد الآلهة.

ولذلك ينبغي التأسيس لفلسفة إسلامية عقلية تأملية؛ تقصي كل ما ليس له علاقة بالعقيدة الإسلامية وتتصدى للأفكار العبثية التي تحاول إبعاد المسلمين عن القرآن والسنة بوصفهما المرجعية، والمنبع الأصيل للفكر والفلسفة الإسلامية، هذه الأخيرة التي ظهرت أصالتها في صورة علم الكلام، والذي هو فن الدفاع عن العقيدة الإسلامية بالحجج والبراهين العقلية، تلك التي يمكن العثور عليها في القرآن الكريم، وكأن الغزالي يقول بأن المنطق الذي ينسب إلى الفيلسوف اليوناني أرسطو هو منطق رباني مرجعيته القرآن، ومن هنا جاءت ثورته على مناهج المتكلمين المضطربة، فالغزالي لا يكف عن مراقبة العقل ومتابعة نشاطه في محاولة الكشف عن الحقائق، مؤكدا على ضرورة التريث والتأني في إصدار الأحكام واعتناق المذاهب، والحذر من الوقوع في المغالطات والأوهام نتيجة التقليد الأعمى للأفكار والفلسفات الوافدة.

وفي سياق تأكيده على المرجعية الفكرية؛ يلح الغزالي على ضرورة معرفة سيرة الصحابة والتزام نهجهم، وينصح من أراد التقليد أن يلتزم بهم فيقول: "وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس.. فلا تغفل عن الصحابة وعلو منصبهم... وأنهم لا يدرك في الدين شأوهم ولا يشق غبارهم، ولم يكن تقدمهم بالكلام والفقه، بل بعلم الآخرة وسلوك طريقها" (الغزالي، 2011، صفحة 87)،

لقد كان الغزالي حريصا على الالتزام بمنهج السلف، وإذا كان صوته قد ارتفع عاليا؛ فذلك لما رأى من مبالغة في التقليد وتعطيل للعقل، فجاءت صيحته التي دعا فيها إلى إعمال العقل، ونبد التقليد والرجوع إلى منهج السلف ليضخ بذلك دما جديدا في جسد المجتمع الإسلامي يعمل على تنشيطه، وتوجيهه نحو الإنتاج والإبداع، والتأثير، والفاعلية، وهو ما تحقق للحضارة الإسلامية التي أثبتت قدرتها وجدارتها وأحقيتها بقيادة الحضارة الإنسانية إلى بر الأمان، فقد سادت وقادت، وكانت رائدة في شتى فروع المعرفة، وكان ذلك بفضل التمسك بالدين والاجتهاد في تطبيقه وتنفيذ ما جاء به، بوصفه ديناً كونياً يصلح لكل زمان ومكان، فهو دين يخاطب العقل الذي هو قاسم مشترك بين بني البشر ويدعو إلى التأمل، والنظر، والتعقل، والإعتبار، فهو دين جاء للعقل والعقلاء.

هذا هو الغزالي الثائر على التقليد المنتصر للحق، والذي لا يتحيز لمذهب أو فريق، ولا يتعصب لرأي أو فكرة مع أنه قد كان في وسعه أن يكون فقيها مع الفقهاء، ومذهبياً مع المتهذهين، ولكن طريقته في الحق وفضله ينحصران في توفره على إبراز الكتاب والسنة، وجعلهما أساساً علمياً لا تحوّل عنه ولا تبديل له (سرور، 2020، صفحة 50). ولن نكون مبالغين إذا قلنا بأن ثورة الغزالي في الحقيقة لم تكن على التقليد والتقليدية فقط، وإنما كانت ثورة على نفسه أيضاً، فقد كان الغزالي شجاعاً وجريئاً؛ لا لأنه وقف في وجه المنحرفين عن تعاليم الدين، والمروجين للبدع والضلالات فقط، وإنما لأنه وقف أمام نفسه لمراجعتها وتأييدها أيضاً، ونظر في نواياه التي يقبل بها على أعماله، وهل هو يسير في الطريق الصحيح أم أنه قد جانب الصواب، وقليلون هم أولئك الذين يمتلكون الشجاعة للوقوف أمام أنفسهم لمحاسبته والعمل على تركيتها بالفضائل، وكثير هم أولئك الذين يعرفون الحق ولكنهم لا يعملون به، أولئك الذين لا تمنعهم معرفتهم بالفضائل دون ارتكاب الشرور والذائل، واقتراف الرذائل، فالفضيلة ليست علماً والرذيلة ليست جهلاً كما ذهب إلى ذلك الفيلسوف اليوناني سقراط قديماً.

وهكذا نجد أن الغزالي، وكما أنه قد سعى إلى إحداث التغيير في المجتمع الإسلامي لتجديد حياته؛ فإنه قد سعى أيضا إلى تجديد حياته هو، وكأنه بذلك يقول لنفسه قبل أن يقول لغيره "إذا أردت الحياة فتجدد"، وبذلك يكون الغزالي حريصا على ألا يكون من أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون، ليكون بذلك نموذجا حيا لأولئك المصلحين والمجددين الذين تظل الأمة بحاجة إليهم باستمرار؛ لأن الزمن لا يمضي على شيء إلا ويعمل على تغييره، ولذلك ينبغي الحرص على أن يكون التغيير نحو الأفضل، وبأحسن الوسائل، وخير وسيلة هي السعي لتغيير ما بالنفس، والعمل على تركيتها بالفضائل تحقيقا للمبدأ الرباني الذي يتجسد في قوله تعالى: " لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"، وقد حرص الغزالي على تهذيب نفسه، وترتيبها حتسكانت حياته كلها محطات إشعاع وإشراق وصفاء روحي، وهي تعتبر بحق لحظة جوهرية في تاريخ الفكر الإسلامي (مرحبا، 1983، صفحة ص620).

إن ثورة الغزالي على التقليد والتقليدية هي دعوة للبحث والتحري، وتعليق الأحكام بشأن ما يجري من حولنا وبشأن ما يصلنا من موروثات، لأن المنتج الثقافي هو منتج إنساني، والإنسان كائن خطاء بطبعه، وقدر الفكر الإنساني أن يتأثر ويؤثر، فلا وجود لفكر إنساني يخرج من فراغ دون أن يأخذ من أفكار السابقين، أما مسألة تأثيره في الفكر اللاحق عليه؛ فإنها تعود ومن دون شك إلى قوة الأفكار وقدرتها على الصمود والتأثير والإقناع، وأفكار الغزالي أثبتت حضورها وفعاليتها في تصحيح الأخطاء، ومحاربة الوثوقية والنمطية، وتجديد الحياة الفكرية والاجتماعية والدينية و قد حرص الغزالي على أن تكون أفكاره في غاية المعقولية، كما حرص على التنكر للنزعة الذاتية، حيث وقف أمام نفسه بحاسنها بجرأة منقطعة النظير؛ في الوقت الذي أطلق فيه الكثير من علماء عصره العنان لأنفسهم متبعين أهواءهم وشهواتهم، غير آبهين بالرسالة التي ينبغي لهم القيام بها، وهي رسالة نشر العلم والفضيلة، ومحاربة الجهل والرذيلة، بتنوير العقول وتهذيب النفوس.

والتنوير الذي نعينه هنا ليس هو التنوير بمفهومه النهضوي الغربي ذاك الذي جاء كثورة على الدين المسيحي الكنسي، داعيا إلى إعلان القطيعة معه؛ لأنه كان سببا في الركود والجمود والتأخر الذي شهدته أوروبا إبّان العصور الوسطى، وعلى إثر ذلك تعالت صيحات التنوير المنبهرة بالتنوير الغربي داعية إلى فصل الدين عن الدولة فظهرت العلمانية. إن التنوير الذي نعينه هو ذاك الذي يشع نوره ويفيض من وحي القرآن الكريم والسنة الشريفة، وهو النور الذي يتلقفه العقل ليهتدي به في رحلة بحثه عن المعرفة، والكشف عن الحقيقة، هذه الأخيرة التي اجتهد الغزالي في بلوغها متجاوزا وبنجاح كل العقبات التي اعترضته، ليصل إلى الذروة ذروة اليقين بنور قذفه الله في صدره، وهي الحقيقة، وهذا اليقين مفاده أن العقل بدون شرع يوجهه يشبه الأعمى، فهذا الأخير يحتاج إلى من يمسك بيده ويقوده إلى الطريق الصحيح، فالعقل في نظر الغزالي بحاجة إلى نور الشرع الذي يعمل على صقله، ويفتح له أبواب السكينة والطمأنينة والهدوء النفسي، وهو بدون شرع سيكون تائها حائرا وهالكا لامحالة لأنه سيسقط في مستنقع البدع والضلالات والأوهام، وليس هناك خطر على العقل من اعتقاده بأن الدين هو سبب الضعف والتأخر والانحطاط، وهذه هي الفكرة التي اجتهد الغرب في تسويقها إلى عالمنا العربي الإسلامي.

وهكذا يظهر الغزالي كشخصية قلقة، وثائرة، وخائفة على ضياع العقيدة الإسلامية، وكشخصية مصلحة ومجددة، فالغزالي هو أحد أبرز المجددين المسلمين، ولا تتجلى ثورته التجديدية في ثورته العقلية على التقليد والتقليدية فقط، وإنما في ثورته الكلامية على اضطراب مناهج علماء الكلام، وثورته الفلسفية على انحراف مناهج الفلاسفة

والباطنية الخارجة عن المنهج الإسلامي، وثورته الصوفية على كل ما هو سلمي من شطحات ووثنيات (محمود، 1986، صفحة 269، 274)، وهذا يعني أن الغزالي قد كان يسعى لتضييق الخناق على كل المتربصين بالدين الذين يسعون لزعزعة العقيدة، وتزييفها، وتحريفها، فقد كان متابعا يقضا لما يجري على الساحة الفكرية والدينية في عصره جريئا في وقفته ضد المنحرفين وأصحاب الضلالات والبدع، والتحذير من خطورة أفكارهم العنيفة والهدامة. وهنا نجد بأنه قد بلغ حد التكفير للفلاسفة المشائين من أتباع أرسطو في ثلاث مسائل، وهي مسألة قدم العالم، ومسألة علم الله للكلديات دون الجزئيات، ومسألة حشر الأرواح دون الأجساد.

8- الخاتمة:

وأخيرا يمكننا القول أن ثورة الغزالي على التقليد والتقليدية، قد كانت بدافع تحرير العقل لكي تكتمل وتحقق إنسانية الإنسان، وبدافع نشر العلم، ومحاربة الجهل والتعصب والجمود الفكري الذي تسبب فيه فقهاء وعلماء عصره وبفضل هذه الثورة أصبح الغزالي علما بارزا من أعلام الفكر الإسلامي المجددين، أولئك الذين يبعثهم الله على رأس كل مائة سنة ليجددوا للأمة دينها، ويعيدوا له بريقه ولمعانه وتوجهه وصفاءه ونقاءه؛ ذاك الذي ظهر به في بادئ الأمر حيث عُرف الغزالي بحجة الإسلام ومجدد القرن الخامس.

لقد أشاد الغزالي بدور العقل في تحصيل المعرفة، ورسم معالم الطريق نحو الحقيقة ، ولكنه لم يحطه بمهالة من القداسة، ولم يعتبره مصدرا وحيدا للمعرفة، واعترف بضعفه وقصوره ومحدوديته، وب حاجته إلى دعم وسند يمنحه الثقة والقدرة على تجاوز حيرته وشكّه ، وهذا السند القوي والمتين هو الشرع، الذي كان للغزالي بمثابة الدواء والبلسم الشافي والمنبع الصافي الذي لا ينضب له معين، والذي حرص الغزالي على أن ينهل منه؛ فقد عاد الغزالي سالما من رحلة الشك والضياغ التي خاضها، وكان ذلك بفضل نور قذفه الله في صدره، وليس بنشاط أو استدلال عقلي، بفضل هذا النور الإلهي تلاشت حيرة الغزالي، وزال شكّه ، وانكشف له اليقين ، وعادت نفسه إلى هدوئها ، وصفائها، وصحتها، واعتدالها؛ بعد مرضها واعتلالها، وبعد أن عرف الغزالي مصدر اليقين، أخذ يدعو إلى التمسك بالشرع، وتقليد صاحب الشرع؛ رسول البشرية الصادق الأمين، وفي دعوته هذه كشف الغزالي عن غيرته على دينه ، وخوفه على ضياعه، فكان دائم الإلحاح على العودة بالفكر الإسلامي إلى أصوله ومنابعه الأولى؛ حتى يحافظ هذا الفكر على هويته وأصالته.

لقد ثار الغزالي على التقليد والتقليدية بجرأة وشجاعة منقطعة النظير، وفي ثورته هذه دعوة صريحة إلى الاحتكام إلى العقل، وعدم الانسياق وراء العادات من دون فحص أو نظر ؛ فالحياة بلا عقل توجه أعمى، وإذا كان الغزالي قد انتقد فقهاء وعلماء عصره، وعنفهم وأنبهم ؛ فلأنهم قد تخلوا عن الرسالة النبيلة التي كُلفوا بها بوصفهم ورثة للأنبياء وأصبحوا من المفسدين في الأرض، ومن الذين أغرقهم الدنيا ببريقها الزائف، فضاخوا وتاهوا، وضاع المجتمع الإسلامي بضياغهم وفساد أخلاقهم.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن فارس ،أ. (د.ت). معجم مقاييس اللغة، ج.5 بيروت، لبنان: دار الفكر.
- ابن منظور ،أ. (1999). لسان العرب، ج.2، ط.3. بيروت-لبنان: دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي.
- أبي حامد ،أ. (1964). ميزان العمل، ط.1 مصر: دار المعارف.

- الجعافرة، ع. أ. (2013). التربية والتعليم بين الماضي والحاضر. عمان الاردن: مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع.
- الحفني، ع. أ. (2000). المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ط. 3. القاهرة: مكتبة مديبولي.
- الحنبلي، ح. ب. (2018). حكم التقليد، ط. 1. الرياض - المملكة العربية السعودية: دار أطلس الخضراء.
- الشافعي، ب. أ. (2016). تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، بيروت - لبنان: دار البشائر الإسلامية.
- الشامي، ص. أ. (1993). الإمام الغزالي حجة الإسلام ومجدد المئة الخامسة، ط. 1. دمشق: دار القلم.
- الششيري، س. ب. (1416 هـ). (التقليد وأحكامه، ط. 1. الرياض: دار الوطن.
- العمري، و. ب. (1999). المنهج الفريد في الإجهاد والتقليد، ط. 1. الأردن: دار النفائس للنشر والتوزيع.
- الغزالي، أ. ح. (2014). أيها الولد، ط. 2. بيروت، لبنان: دار المنهاج.
- الغزالي، أ. ح. (1964). ميزان العمل. مصر: دار المعارف.
- الغزالي، أ. ح. (1967). المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق وتقديم جميل صليبا، كامل عياد، ط. 7. بيروت - لبنان: دار الاندلس.
- الغزالي، أ. ح. (1993). فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ط. 1. دمشق، سوريا: دار البيروتي.
- الغزالي، أ. ح. (2011). إحياء علوم الدين، المجلد 1، ط. 1. المملكة العربية السعودية: دار الرشاد للنشر والتوزيع.
- الغزالي، أ. ح. (2011). إحياء علوم الدين، المجلد الأول، ط. 1. المملكة العربية السعودية - جدة: دار المنهاج للنشر والتوزيع.
- الغزالي، أ. ح. (2013). معيار العلم في المنطق، ط. 2. لبنان: دار الكتب العلمية.
- الغزالي، أ. ح. (د.ت). كتاب الإقتصاد في الاعتقاد، ط. 1. مصر: المطبعة الادبية.
- القرضاوي، ي. (1994). الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- ابن قدامة، م. أ. (1998). روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ط. 1. مكة: المكتبة المكية.
- حنفي، ح. (1986). موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، بحوث في علوم: أصول الدين، أصول الفقه، العقل والنقل. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- ذياب البدانية. (2012). التوثيق العلمي دليل النشر العلمي. عمان الاردن: دار المناهج للنشر والتوزيع.
- زقزوق، م. ح. (2003). الموسوعة الإسلامية العامة. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- سرور، ط. ع. (2020). الغزالي. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداي.
- صليبا، ج. (1982). المعجم الفلسفي، ج. 1. بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني.
- عرجون، م. أ. (د.ت). (أبو حامد الغزالي المفكر الثائر. مصر: المؤسسة المصرية العامة للأنباء والنشر والتوزيع والطباعة.
- فروخ، ع. (1972). تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ط. 4، 1983. بيروت لبنان: دار العلم للملايين.
- مجمع اللغة العربية. (2004). المعجم الوسيط، ط. 4. جمهورية مصر العربية: مكتبة الشروق الدولية.
- محمود، ع. أ. (1986). الفكر الإسلامي والفلسفات المغارضة في القديم والحديث. مصر: الهيئة المصرية اعامة للكتاب.

- مرجبا م . ع . (1983). من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ط3. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.